جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم التاريخ

دكتوراه اسلامي

المجابهة الاسلامية للحروب الصليبية

(الحملة الصليبية الاولى ومقدمة عن الوضع الاسلامي الداخلي)

أ.د. حنان عبد الرحمن طه

الحملة الصليبية الاولى ومقدمة عن الوضع الاسلامي الداخلي

المتأمل لخريطة العالم في العصور الوسطى يجد ثلاثة قوى رئيسية كانت تحكم العالم سياسياً وهما الامبراطورية البيزنطية الى شرق أوربا واسيا الصغرى والثغور المتاحة للعراق وسوريا بينما هناك قوتان اسلاميتان تتقاسم حكم العالم الاسلامي آنذاك وهما الخلافة العباسية ومركزها بغداد والفاطميون ومركزها القاهرة . وفيما يتعلق بالخلافة العباسية فلابد من نبذة مختصرة عن اوضاع الخلافة العباسية بعد عصرها الذهبي فقد ضعفت الخلافة العباسية منذ عهد المتوكل على الله إلى نفوذ الاتراك وكان هؤلاء الترك كانوا في السابق يجلبون عن طريق الفتوحات كغنائم او عن طريق الشراء وهم ضفار وكان هؤلاء يباعون ويشترون لكثرة اعدادهم واحيانا ولصعوبة المعيشة تحكم البيئة القاسية التي يعيشون فيها وكان هؤلاء الصغار يجلبون الى القصور تخدم من اماء بعض الخلفاء تزوجوا منهم واولاد خلفاء من امهات تركية والمتوكل اعتمد وما لبث أن زاد الاعتماد على هؤلاء الاتراك في الجيوش وذلك لانشغال العرب عن الفتوحات واندماجهم بالمجتمعات وانشغالهم بالأرض الأمر الذي دفع الخلافة الى الاعتماد عليهم لسببين رئيسيين الأول لكثرة اعدادهم ورخص اسعارهم وكذلك المواصفات القتالية التي يمتازون بها بحكم البيئة القاسية التي يعيشون بها حيث تصل درجة الحرارة الى ناقص اربعين درجة تحت الصفر فضلا عن ذلك قدرتهم على القتال اثناء القهقرة خلال اجادتهم الرمي بالسهم فهو يقتل عدوهم وهو مهزوم منهم . استقدام هؤلاء بأعداد كبيرة وتدرجوا في المناصب والرتب واعمارهم صغيرة وكانوا يتدربون تدريبا عسكرياً جيد جعل ولائهم للخلفاء الذي استقدمهم الا ان بعد وفاة الخلفاء اخذ هؤلاء يتدخلون بشؤون الخلافة والدولة فاصبحوا المتحكمين بالخليفة فأصبحت الخلافة العباسية اسرة الاتراك من سنة ٣٠٢ هـ الى ٣٣٣هـ لنفوذهم الا انه بعد أن استمر الصراع بين هؤلاء القادة ضعف شوكتهم فيحل محلهم قوة ناشئة من بلاد الديلم وهم البويهيين وكان هؤلاء شيعة متعصبون واستولوا على مقدرات الخلافة في بغداد منذ دخولهم ٣٣٤هـ . فكر البويهيون في ازالة الخلافة العباسية السنية الا ان احد المستشارين كما يورد ابن الأثير في الكامل في التاريخ أشار إلى معز الدولة احمد بن بويه بعدم ازالة الخلافة العباسية السنية لمكانتها في العالم الاسلامي آنذاك وكذلك الخشية من الفاطميين لانهم لوا استجابوا لطلبهم فلو امر الحاكم الفاطمي بقتال احمد بن بويه لقاتلوك هكذا قرروا الابتعاد عن الخلافة العباسية مع تجريدها من كل صلاحياتهم وعاملوا الخلفاء العباسيين بمنتهى الاذلال . فتارة يقتلونهم وتارة يسملون اعينهم

واستمر الحال ففعلا ذلك بإتباعهم سياسة طائفية اثارة العبث وادخال الكثير من البدع مثل سب الصحابة والطعن بهم قرابة تسعة عقود حتى تمكنت احدى القوى الناشئة في أواسط آسيا وهم السلاجقة بعدما تمكنوا من فرض نفوذهم على السامانيين و الغزنويون بعد هزائمهم في معركة دانقان ٤٢٩ هـ بقيادة طغرلبك . الأمر الذي دفع الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالطلب منهم الى القدوم الى بغداد وانقاذهم من الاوضاع التي يمر بها خاصة بعد الصراع بين القادة والأمراء الاتراك والحاكم البويهيون فيما بينهم وفعلا استجاب طغرلبك لطلب الخليفة بعدما اخضع جميع الاقاليم التي كانت تعيق طريقه الى بغداد مثل خراسان و اصفهان و تبريز و همدان وقبيل دخوله بغداد ٤٤٧هـ اعلن تصريح في غاية الاهمية وهو انه قادم الى بغداد لثلاثة اسباب اولاً: تقبيل العتبة الشريفة (بغداد) وثانيا : فتح طريق الحج وثالثاً : ازالة الدولة العبيدية (الفاطميين) هذا الأمر تعكس أمور في غاية الاهمية . الاول : اطفاء الشرعية لحكمه من خلال اظهار نفسه البطل المنقذ وهو واقع حال والثاني : كسب ود الراي العالم الاسلامي بفتح طريق الحج وهو غاية ما يتمناه كل مسلم بعدما هيمن الفاطميون على اقليم الحجاز والحكم به والثالث : ازالة العدو اللدود وعدو الفاطميون . الأمر الذي ينعكس حقيقة مكبوتة لدى السلاجقة بأنشاء امبراطورية بمظلة عباسية وعليهم استعادة الممتلكات

التي فقدتها الخلافة العباسية في الاقاليم الغربية وتحديداً بلاد الشام ومصر وفيما بعد. وما لبثت الدولة السلجوقية في عهد طغرلبك في بسط نفوها على اقاليم الخلافة العباسية التي كانت فقدتها رغم الفتن و المؤامرات التي تعرض لها طغرلبك من اخويه وابناء عمومته لكن أخطرها خروج امية ابن ابراهيم بنال ومن ثم تعاونه مع البساسيري جند امية الا ان طغرلبك تمكن من القضاء عليها وإعادة الخليفة المأسور القائم بأمر الله ثم بدأت المناوشات في اقليم ارمينيا واسيا الوسطى حتى توفي طغرلبك سنة ٤٥٠ هـ. فخلفه ابن أخيه الب ارسلان والذي يعد واحدا من أبرز قادة السلاجقة العظام والمسلمين كافة استطاع القضاء على الفتن والمؤامرات الداخلية من قبل اعمامه وابناء عمومته ومن ثم التوجه الى التوسع نفوذا في اسيا الصغرى تمكن من فتح العديد من المدن داخل اسيا الصغر الأمر الذي جعلته يصدم بالإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع كون اسيا الصغرى أحدى ممتلكاته . تمان رومانوس الرابع تجيش الجيوش والمرتزقة حتى بلغ تعداد قواته المدتين الف مقاتل في حين لم يكن مع الب ارسلان سوى عشرين الف مقاتل الا ان شجاعة هذا القائد الإسلامي الفذ وبسالته، وذكائه الملهم قادته إلى أن يختار زمان ومكان المعركة وتحديد يوم الجمعة موعدا لها فلبس مع مقاتليه الاكفان ودعا له المسلمون في المساجد، فتمكن من تحقيق انتصار لامع في موقعة ملاذ كرد سنة ٤٦٣.هـ ملحقا خسائر فادحة بالبيزنطيين وتمكن من أسر عشرات الآلاف بما فيهم الإمبراطور رومانوس الرابع وهو أول إمبراطور بيزنطي يؤسر في تاريخهم وتمكن رومانوس بعد المعركة من افداء نفسه بمليون دينار ذهبي وحيث عاد الاخير الى القسطنطينية، قامت ثورة ضده وقتل على اثرها.

وبذلك اجتاحت الجيوش السلجوقية اسيا الصغرى الا ان القدر لن يمهله فقد أصيب بسهم توفي على اثرها سنة ٤٦٥ هـ .

خلفه ولده ملكشاه والذي لا يقل شأنا عن ابيه حيث سار على سياسة سلفه فكان خير خلف لخير سلف، وتمكن من التوغل داخل آسيا الصغرى حتى وصل سواحل قونيا ونيقيا على ساحل بحر مرمرة وبذلك تمكن السلاجقة من دفع الحدود التقليدية مع البيزنطيين أكثر من اربعمئة الف ميل وبذلك تحولت اسيا الصغرى إلى اراضي اسلامية فتمكن ملكشاه من بسط نفوذ إمبراطوريته ، من الصين شرقا إلى سواحل بحر ايجة غربا. هذه الانتصارات التي تحققت دقت ناقوس الخطر ليس للدولة البيزنطية فحسب بل في عموم أوربا فقد سارع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس من الاستنجاد بالبابا جريجوري السابع لإنقاذ إمبراطوريته من السقوط، وخوفا من أن تلقى أوربا المصير ذاته، وهو ما حفز خليفة جريجوري، البابا أوربان الثاني في إطلاق الدعوة للحروب الصليبية فيما بعد. وعلى اثر معركة ملاذ كرد حاول الب ارسلان استعادة بلاد الشام ومن ثم التوجه إلى مصر لاستكمال هدفهم وهو توحيد العالم الاسلامي واخذ العديد من المدن في الجزيرة الفراتية مثل مدينة اديامان وماردين وحلب والرها وغيرها، حتى اضطر حاكمهم محمود بن نصر بن مرداس الى المثول بين يديه وإعلان الخضوع لسلطانه، ثم أرسل احد قواده ويدعى اتسز واتجه الخوارزمي لاستكمال فتح الشام واستعادته من السيطرة على مدنها الواحدة تلو الاخرى مثل حمص ودمشق وطرد الحكام الفاطميين حتى وصل إلى مصر وكانت مصر أن تسقط بيده حينما وصل الى مشارف القاهرة الا ان تأخره مدة أربعين يوما في طريقه إلى مصر حال دون سقوطها وهزم القائد التركي اتسز وقتل أخيه وقطعت يد أخيه الآخر وعاد إلى دمشق مهزوما بعد أن كانت مصر أن تسقط بيده، وبعد وفاة ملكشاه سنة ٤٥٨ هـ وقع صراع بين أبناءه وهم بركياروق و أخيه من ابيه محمود بن تركمان خاتون وكان صغير السن وتمكن من إزاحة أخيه الا ان الصراع بدأ بين أخيه محمد الا ان الصراع الأخطر كان بين بركياروق وعمه تاج الدولة تتش بن الب ارسلان وكان الاخير قد خاض صراع مع ابن عمه سليمان بن قتلمش ملك سلاجقة الروم (في اسيا الصغرى) بعد أن تمكن الأخير من السيطرة على انطاكية التي كانت

خاضعة للبيزنطيين وكان أميرها يعطي الجزية والتقى الطرفين في معركة قرب حلب قتل على اثرها سليمان بن قتلمش وبذلك انهار السد الذي كان يحمي بلاد المسلمين في شمال العراق وبلاد الشام وكان ملكشاه حين قدم إلى الشام أراد أن يحجم دور أخيه قتلمش، وجعل المدن المهمة في بلاد الشام تحت امرة قادته من المسلمين، فجعل الرها بيد القائد برزان وانطاكيا بيد القائد باغسيان وحلب بيد قسم الدولة ان سنقر البرسي والده عماد الدين زنكي والذي سيتم الحديث عنه لاحقا إلا أن هؤلاء القادة وقفوا إلى جانب بركي أروق ابن سيدهم ضد عمه تاج الدولة ابو سعيد تتش بن الب ارسلان فما كان من الاخير الا العودة إلى تصفية حساباته مع هؤلاء القادة، فقتل قسم الدولة أمير حلب، ثم توجه إلى تنش سنة ٥٨٨ هـ، لانتزاع السلطنة من ابن أخيه كونه الاحق كما يدعي فالتقى الطرفان سنة ٥٨٨هـ فقتل تاج الدولة تتش في المعركة، فتحولت بلاد الشام إلى ساحة لصراعات لها اول وليس لها آخر بين الأمراء والقادة فقد استأثر بحلب شمس الدولة رضوان بن تاج الدولة تتش فكون إمارة فيها حتى استأثر أخيه تاج الملوك دقاق بدمشق واصبحت إمارة مستقلة وكان بين الأخوين معارك بسبب صغر سن هؤلاء الامراء وتدخل اوصيائهم في تدبير شؤنهم وهو ما يعرف بالاتابكة، وهو نظام تركي الغرض منه رعاية أبناء الامراء السلاجقة لصغر سنهم حتى يتمكنوا من إدارة اماراتهم في المستقبل وكان نظام الاتابك ؟ طلاق الحمل والتي تعني (انا وبك) مربي الأمير الا ان الذي جعل من هؤلاء الاتابك ان يستأثروا بالحكم. فشكلوا اتابكيات مستقلة وخاصة بهم بعد التخلص من الامراء او جعل البعض منهم مسلوبي الارادة كما حصل للاتابك ظاهر الدين طغتكين الذي كان اتابك لتاج الملوك دقاق بن تنش الذي توفي سنة ٤٩٧ هـ، ولم يقتصر الأمر عند حدود هاتين الامارتين فقد أصبحت فلسطين بين يدي ارتق وهو اخاً للقائد التركي ملكشاه فتولى فلسطين وخلفه ولديه سقمان وايلفازي على حكم فلسطين وبيت المقدس وكذلك الحال مع الإمارات الأخرى، مثل حماه وحمص والادهى من ذلك أن بعض القلاع والحصون أصبحت إمارات مثل حصن شيراز وهي قلعة كان يحكمها والي منقذ وكذلك المعرة وحصن الأكراد وغيرها.. اما مصر فكانت تحكم من قبل الفاطميين وهو نسبة إلى فاطمة زورا كما تورد المصادر التاريخية، وهذه الدولة تنسب إلى. المهدي بن عبد الله بن ميمون ابن القداح الذي تمكن من انشاء دولة في المغرب العربي سنة ٢٩٦ هـ، وكانت تلك الدولة على اساس طائفي وما لبثت ان استولت على المغرب العربي ومن ثم إلى مصر فتمكنوا من دخول مصر سنة ٢٨٥هـ وبعدها بسنة بنوا القاهرة وهم يختلفون عن اقرانهم الاثني عشرية كونهم ينتسبون إلى اسماعيل بن جعفر الصادق (رض) الذي توفي في حياة ابيه فانتقلت الإمامة إلى أخيه الأصغر موسى الكاظم، إلا ان اتباع اسماعيل قالوا بانتقال الإمامة إلى ابنه محمد الذي تنقل إلى اكثر من مكان في العراق وايران وبلاد الشام ثم اعقبه عدد من الأئمة حتى وصلت كما يدعون إلى محمد بن عبدالله القداح وتمكن عدد من الدعاة الترويج للأمام الداعي وللمذهب الإسماعيلي في مختلف الأقاليم في العالم الاسلامي، فتمكنوا من إقامة دولتهم في المغرب العربي وعند سيطرتهم على مصر وصل بهم الأمر إلى ادعاء الحاكم بأمر الله الألوهية حتى ذكره احد الشعراء قائلا ماشئت لا ماشاءت الاقدار..... فاحكم فأنت الواحد القهار وما لبث ان امتد حكم الفاطميين إلى بلاد الشام وسيطروا على مدن مهمة كحلب ودمشق ومدن في فلسطين. والطريف في الأمر أن الفاطميين دخلوا في صراع وجود مع أعدائهم السلاجقة الذين كادوا ان يسقطوا دولتهم حتى وصل الأمر بالفاطميين إلى التحالف مع الروم ليسقطوا دولة السلاجقة، ووصل الأمر بهم الى محاولة تقسيم مناطق النفوذ بينهم وبين الروم الصليبيين فارادوا من الصليبيين السيطرة على شمال بلاد الشام ويحتفظوا هم بحنوبها. بل وصل بهم الأمر إلى رمي بيت المقدس بالمجانيق الذي كان تحت حكم الاراتقة ، هذه صورة مختصرة عن أوضاع بلاد الشام قبيل قيام الحروب الصليبية فكانت أوضاعها تغلي، بينما أوربا تتوحد لأول مرة منذ أمد بعيد .